توظيف الطبيعة في مجموعة أحد عشر كوكبا لمحمود درويش

م.م.نور كريم عبد الزهرة - جامعة كربلاء / كلية التمريض
م.م.التفات حسن عبد الجبار - جامعة كربلاء / كلية التمريض
م.م.جنان محمد سلمان - جامعة كربلاء / كلية التمريض

المقدمة:

الصلاة والسلام على اشرف خلق الله البشير النذير ، السراج المنير ، الطهر الطاهر ، الدر الفاخر ، البحر الزاخر ، المخصوص بالمآثر، ابي القاسم محمد وعلى اله اجمعين الى قيام يوم الدين .

يُعد محمود درويش نموذجا للشعر العربي الحديث الذي استطاع أن يشكل ذائقة متميزة اتسمت بالتفاعل مع المبنى القرائي الحديث فأخذ يقرأ النص على وفق بُنياته القارة و المهيمنة وصولا إلى الفهم المُقارب لروح النص مع الاعتماد على التجارب القرائية السابقة التي مهدت للرؤية النقدية العربية .

على هدي هذه الرؤية فقد اختارت الباحثة ان تكون دراستها لمجموعة (أحد عشر كوكبا) للشاعر محمود درويش دراسة لتوظيف الطبيعة حيث تأخذ من مديات التحليل النصي لفهم طبيعة توظيفه للطبيعة في النصوص فمعلوم ان الطبيعة قد وُظِفت بأشكال وانساق متعددة على طوال تاريخ الادب العربي ، مما جعل مقاربتها في النصوص الشعرية المعاصرة اكثر صعوبة وتعقيدا ، لاسيما وان الشاعر قد اعتمد الرمز والايحاء نسقا بارزا في تجربته الشعرية وقد وظفها توظيفا مائزاً يساعد في نشر افكاره الثورية و الوقوف بوجه الصهاينة حتى الوقت الحاضر .

لكي تكون الدراسة اكثر قدرة على استجلاء مفاهيم الطبيعة وصورها في شعر محمود درويش فقد اختارت الباحثة مجموعته الشعرية (أحدَ عشرَ كوكباً) لتكون نموذجاً لتوظيف الطبيعة في شعره ، وقد نُظِم البحث على وفق خطة بالتفصيلات الآتية:

1. التمهيد وقد عُرِضت فيه حياة الشاعر بشكل موجز وهجرته و نضاله الثوري ثم بعض من مؤلفاته.
2. المبحث الأول عُرِضَ فيه الطبيعة الحية في المجموعة المذكورة سابقا .
3. المبحث الثاني اشتمل على دراسة الطبيعة الصامتة في المجموعة .

ثمَّ خاتمة للبحث عُرِضت فيها أهم النتائج المستوحات من البحث على اسس منهجية و بحثية في نص الشاعر محمود درويش تليها مصادر ومراجع استعانتِ الباحثة بها للتمكن من الغوص في مكنونات هذا البحث .

introduction in English:

Mahmud Darwish is considered a form of a modern Arabic poetry . He could make special sense was characterized by communication with the modern way of reading . He began to read the text according to dominant and stable structures of the text to understand approximate to the text spirit and He depend on the previous reading that pave to Arab critical vision.

According to that vision the researcher study Mahmoud Darwish poet critical study. The researcher takes textual analysis to understand the nature of his employment to the natural in the text. The natural was employed in many forms through out a history of Arabic literature that make its approach to modern poetry more difficult and complicated .

The poet depends on the symbol and inspiration in his poetry .

He use his way to publish his revolutionary ideas against Israel until this time.

To make this study more able to show a nature concepls and its image in Mahmoud Darwish poetry so the researcher chooses his poetry collection Ahdaa Eashar Kawkaban for study

التمهيد :

ولد محمود درويش في الثالث عشر من اذار عام 1941 "اي بعد عام 1936 بخمس سنوات بعد الثورة فارتبطت طفولته بأثارها"(1) كانت ولادته بفلسطين الحبيبة في قرية صغيرة اسمها (البروة) وامه من قريه(الدامون) قرب (الناصرة) كان والدها اديب البقاعي عمدة الدامون فقد كانت سيدة فلسطينية لا تقرا ولا تكتب.

كان درويش من عائلة تتألف من ثمانية ابناء اربعة صبيان وثلاث بنات، وهو الابن الثاني في الاسرة (2) اظهر تفوقا دراسيا وكان شغوفا بالمطالعة وتقليد الشعر القديم في محاولاته الشعرية الاولى كما كان موهوبا في الرسم والدراسة وغيرها، وبعد ان هجم العدو الإسرائيلي على قريه البروة ودمر منازلهم اضطروا الى الذهاب الى لبنان وعاش الشاعر في لبنان مدة من الزمن ،وقد عانى كثيرا (3)من الوقوف في طابور اللاجئين وتعرف لأول مره على كلمة وطن وكلمات اخرى فتحت امامه نافذه الى عالم جديد وبعدها صدر قرار العودة الى الوطن فغمره فرح العودة ليلة ابلغوه بخبر الرجوع الى قريته بعد عام من النكبة لان أرض الوطن كانت تعني له(نهاية الحقبة الصفراء نهاية تحرشات الاولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتموني بكلمة لاجئ المهينة)(4) .

عاده بعد رحلة مضنية ليقيم في قرية (دير الأسد) ويعتاد حياة الكبار وقضاياهم وبذلك استبدل عنوان اقامته القديم بعنوان جديد(كنت، وانا لاجئ في بلادي) ان اللجوء في الوطن اكثر وحشية (5) ومع مرور الايام تخلص من غصة الغربة في الوطن وبخاصة عندما تدخل عنصر التحدي وعامل الوعي والبحث عن الحل واهتدى لحل الانتماء الملموس والسياسي وعاش محمود في مرارة التناقض بين انتمائه هو واهله منذ اجيال الى ارض فلسطين وبين حرمانه من الجنسية في هذا الوطن (6) .

نجد الثورة راسخة في داخله منذ ان وعى مفهومها حيث كان وعيا شاملا وان فلسفة درويش الثورية هذه لم تأتِ طفرة او كانت وليدة صدفة مفاجأة وانما صارت بعد قراءته على (الاتحاد ، الجديد ، غوركي ، لينيين) وتوسع في دراسته النظرية في الاشتراكية ، بعد ذلك انتسب الى الحزب الشيوعي وهو الحزب الوحيد في اسرائيل الذي يجد فيه عرب فلسطين متنفسا لهم يُعبّرون عن طريقهِ على قضاياهم ومشاعرهم الفكرية والادبية والسياسية والتحم بجماهير شعبه فأعطاه المنهج الاشتراكي ما يسمى التفاؤل التاريخي فأصبحت قصائد درويش داخل الارض المحتلة حجارة الانتفاضة والثورة على ايدي الفلسطينيين وتجد رفض الاحتلال متجسد في ديوانه (أحدَ عشرَ كوكبا) حيث يعبر فيها عن قضية الوطن وكيفية قيام عناصر الطبيعة ودفاعها عن الارض والعرض والدم وتجلت فيها رؤية درويش للعالم من حوله ولمسار القضية التي حمل فكرة الدفاع عنها شعريا واخلاقيا وارتقت به الى مصاف التجارب الانسانية الخالدة التي يقترب الى حد بعيد من الاسطورة لتصبح أسطورة معاصرة (7) ، ومن اثارهِ الشعرية التي حارب فيها المحتل ودافع عن الارض دفاعاً ثورياً خالداً (8) :

- تلك صورتها وهذا انتحار العاشق
- احبك او لا احبك
- اعراس
- الرسائل
- حالة حصار
- حصار لمدائح البحر
- حيرة العائد
- لا تعتذر عما فعلت
- أحدَ عشرَ كوكباً

المبحث الأول : الطبيعة الحية في مجموعة أحدَ عشرَ كوكبا

الطبيعة لغة :

كما عرفها احمد بن فارس (ت 395 هـ) " مَثلٌ على نهايةٍ ينتهي اليها الشيء حتى يُختم عندها "([9]) أما الزمخشري(ت 538هـ) ذكرها بانها" الطبع والطبيعة والطباع والطبائع وهو متطبع بكذا وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة"([10]) وابن منظور (ت 711 هـ) فذكر الطبيعة بأنها الخليقة والسجية التي جبل عليها الانسان وهي طبيعته التي طبع عليها وطبعها والتي طبع بها" ([11]) ، اذاً فالطبيعة هي خُلق وسجية سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان .

الطبيعة اصطلاحا :

كما عرفها الزمخشري (ت538 هـ) "المكان الذي وُجد في الارض ولم يكن للإنسان دور في تكوينه ويشمل السماء وما فيها من كواكب ونجوم والارض "([12]) وقيلَ إنها عبارة عن القوة السارية في الاجسام بها يصل الجسم الى كماله الطبيعي" ([13]) وعلى ذلك فان الطبيعة هي عالم الاحياء الذي حول الانسان يراه ويشعر به فيتأثر فيه وخاصه الشاعر لأنَّ الشعر مرتبط في الطبيعة وقيل عنه " الشعر ابن الطبيعة منها نشأ وفي احضانها ترعرع ويمثلها بالغ الكمال "([14]) وتُقسم الطبيعة على نوعين هما([15]) :

1- الطبيعة الحية
2- الطبيعة الصامتة

الطبيعة الحية لغة :

من (حَيِيَّ) اي "احياه الله فَحَيِيَّ و حيَّ ... أتَيتُ الأرضَ فأحييتها أي وَجَدتُها حيّةَ النبات مُخصَبة . ووقع في الأرض الحيا وهو المطر " ([16]) وقيل أنها " حيا : الحياةُ نقيض الموت ... و حيِيَّ حياةً ، وحيَّ يَحيا و يحَيُّ فهو حيٌّ " ([17]) .

الطبيعة الحية اصطلاحا :

عرفها الكثير من العلماء فمنهم من عرفها" هي صفة توجب للموصوف بها ان يعلم ويقدر" ([18]) وقيل ان" إنها قوة مزاجية تقضي الحس والحركة وهي قوة نامية موجودة في النباتِ والحيوان" ([19]) وتشمل هذه الرياض والحدائق والبساتين والازهار والثمار وما يتعلق بها ([20]) لقد تأثر الشاعر بالطبيعة وخاصة الطبيعة الحية لأنه يتفاعل معها ويتأثر بها ويعبر عن طريقها على احاسيسه ومشاعره وقد يقوم بمحاكاتها وكأنها تعقل ما يقول لها ويبث همومه واحزانه ، و " الشاعر في بعض الاحيان يفسر كثيرا من ظواهر الطبيعة بما يلائم مزاجه وطبيعته ولعله يرى في هذه التفسيرات راحة نفسية تخفف من حدة ما يعانيه وقسوة ما يشعر به من الحسرة والكآبة " ([21]) .

الطبيعة الحيَة في مجموعة (أحدَ عشرَ كوكباً)

وظفَّ درويش عناصر الطبيعة الحية توظيفا يجعل لكل منها روح واحساس يعلم من هو مالك الارض الحقيقي والذي كتب الله ـ جل جلاله ـ هذا الوطن وممتلكاته باسمه ولا يحق لاحدٍ ما التجاوز على أرض البلد

العظيم فالطبيعة تنتفض امتثالا لأوامر الله وتريد اخراج المحتل من أرضها وهذا ما يمكن التماسه بمؤلفات اكثر الشعراء والكُتاب حتى يومنا هذا.

أ ـ النبات

1- الأشجار : وتدل على اسماء النباتات" وهو ما قام على ساق" (22) ومن الابيات التي وظف فيها الشاعر لفظة الاشجار هي:

في المساء الاخير على هذه الارض نقطع ايامنا عن شجيراتنا (23)

في اخر ليلة على ارض فلسطين المحتلة نقطع خيوط الاتصال بهذه الارض المعطاءة وخيراتها وطبيعتها الخلابة فالشجيرات هنا تدل على انها الخيوط الطبيعية التي تربط بينه وبين الارض التي عاشَ فيها ردحا من الزمن .

الصورة الشعرية حقيقية متجسدة على الواقع ووظيفة الشجيرات هنا رمزية تدل على الاتصال بالأرض واستعمال كلمة شجيرات في هذا الموقع للدلالة على قصر الخيوط الرابطة بينهم وبين الارض .

ماذا تريد من الذاهبين الى شجر الليل (24)

لابد من الوقوف عند المحور المكاني المتمثل بالشجر والمحور الزماني المتمثل بالليل وكلاهما من الطبيعة القادرة على ايصال الصورة بكل وجهها فالشجر دلالة على التجدد والحياة والنماء لكن صورته الحية تشعرنا بالتشابك والتلاحم بينما الليل ودلالته مغاير تماما فهي تعتمد على اللون والوحشة في اطارها المعنوي فلابد من الوقوف عند الجانب المعنوي فيسال الشاعر ماذا تريد من الذاهبين الى الاوطان المظلمة المتأخرة الغارقة في ليل تأخرها وجهلها.

الصورة الشعرية مجازية مجازا لغويا (25) حيث اسند الشجر الى المكان المظلم وعبر عنه اجمالا بالليل الدال على الزمان هو وظيفة الشجر هنا وظيفة رمزية تدل على الخيال اللفظي الممزوج بالصورة الافتراضية

2- النخيل : شجرة التمر وتنمو في المناطق الجافة الحارة و المعتدلة وهي مستديمة الخضرة وتمثل النبات المثمر الذي منحها الله القدرة على النمو والعيش تحت ظروف الصحراء (26) وكان لابد من الحديث عن النخل في الموروث الاسلامي والعربي وتميزها في شعر درويش الذي غير في وظيفة دلالة النخلة من بيت الى اخرمنها :

واترك اريحا تحت نخلتها
ولا تسرق منامي (27)

يستعمل الشاعر اسلوب الحوار مع العدو الغريب عن ارضه بان يترك اريحا وهي رمز مهابته وكرامته وكبريائه لتأخذ قسطا من الراحةِ تحت فيء النخلة

الصورة الشعرية (استعاره)(28) حيث استعار لأريحا صورة الفتاة التي تستظل تحت النخلة وحذف الفتاة لأنه ذكر لازمة من لوازمها وهي الأستظلال ، وظيفة النخلة رمزية تدل على الهوية العربية للبلاد التي تكثر فيها وتُعتبر موطنها الأصلي

تُعلق على بلح النَّخيل ذاكرتي جرساً(29)

الجرس دال على الانذار وقد ربط الذاكرة بالجرس ؛ ليعطي انذارا كلما تذكر سيدق في أعالي النخل كأنه البلح و الصورة الشعرية مجازية تدل على ارتباط العربي بارضه حتى كان النخيل رمز لكل الذاكرة التي

استوطنت المكان والزمان اما ثمار النخيل فبمثابة منبه مؤثر في استرجاع كل ما يرتبط بالوطنِ وارضه فالنخيل هنا قد يخص كل ماضي الشاعر ليُشكل ذاكرته المتأصلة ، وظيفة النخل رمزية تدل على المكانة المرتفعة منه.

ولكني غريب
عن نخلة الصحراء منذ ولدت في هذا الزحام (30)

التوظيف المزدوج لمفردتين تدل كل منهما على الطبيعة ، الاولى حية والثانية صامتة ، وقد قصد الشاعر انه بقي يتدرج في مكانه لأن اباه كان يعاني من قسوة المحتل وظلمه ولم يرتفع شأنه كارتفاع النخلة في الصحراء التي لا يحيط بها شيء فتبدو شامخة وعالية وذات رفعة منذ ان ولدت في زحام العصر من كثرة الناس وتعدد الآلآت وضجيج المكائن والوسائل التي تربك عيش المجتمع .
الصورة هنا شعرية مجازية حيث ان الشاعر ولد في مكان ووطن مزدحم وليس في الزحام نفسه ووظيفة النخلة هنا رمزية تدل على الوطن العربي وغربة الشاعر هي المقصودة.

3- الأقحوان : نوع من انواع الورود ذات اللون الابيض الممتزج بالصفرة المحببة (31) وقد استفاد الشاعر من لون وجمال الاقحوان ليوظفه في شعره

وكنا نبشركم بالبراءة والأقحوان (32)
استهل الشاعر بكنا لأنهم كانوا قبل العدوان يبشرون بقيم بريئة مبنية على المحبة والتعاون وعدم التعدي على حقوق الاخرين ويرفعون شعار السلم ليبشروا به الصديق والعدو فقد استفاد من دلالة الفعل على التجدد والاستمرار على انهم ما زالوا يبشرون بالسلم والمحبة والصورة الشعرية مجازية اما وظيفة الأقحوان في هذا البيت فهي رمزية لونية تدل على السِلم .

ولنا تقاليدنا في مديح البيوت وتربية القمح والاقحوان(33)
استعمل الشاعر الاقحوان كدليل واقعي اي انهم يزرعون القمح و الاقحوان للاستفادة المادية في الترزق اما الدليل المجازي فكان في تربية القمح لتنامي الخيرات والاقحوان لنشر شذاه بين الناس اما الصورة الشعرية فهي حقيقية بالافتراض الاول اما الثاني فهي مجازية (مجازا لغوي) دال على نشر الخير بين الناس ووظيفة الاقحوان وظيفة رمزية دالة على التكسب بتارة ونشر الشباب بين الناس تارة اخرى .

4- الأرجوان : هو الورد الاحمر وغالبا ما يجمع بين حمرة الورد وحمرة الدم وقد جمع محمود درويش بينهما ايضا

سلاما على ارضك كنعان ارض الغزالة والارجوان (34)
ينحى الشاعر منحى القدماء في الدعاء بالسلام لأرض فلسطين كما دعا الشاعر ـ متمم بن نويرة ـ بالسُقيا للأرض التي دفن فيها اخوه مالك في بيته المشهور :

سقى الله ارضا حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا (35)

وارض فلسطين هي ارض يدافع فيها الغزال والارجوان فضلا عن كون الارجوان يكثر ببلاد الشام ليربط بين خصوصية ارض اسمها كنعان في بلاد الشام وارض مصر الصورة الشعرية حقيقية ووظيفة الارجوان جمالية .

ب ـ الحيوان :

ومثل ما استعمل الشاعر في مجموعته الفاظ دالة على النبات فقد استعمل الفاظ دالة على الحيوان وجعل لها دلالة حقيقية مرة ودلالة رمزية مرة اخرى ومن هذه الالفاظ

1- الغزال :

وهو حيوان جميل جاء الافتنان به لتناسق اعضائه ورشاقته ([36]) فاسقط الشاعر عليه من محنته وشدة وَجده وجاء بكثرةٍ في شعره .

ويُضيعُ شخصٌ غزالته في البراري
فيصرخ غرناطة بلدي ([37])

الغزالة دلالة عن البلد الجميل الذي ضاع في الصحراء كما يضيع الغزال فيها ويصف الشاعر ضيعَته مثل غرناطة كأنه فقد شيء عزيز عليه يمثل البراءة في صحاريها فيبقى بعدها متهيج الاحاسيس من هذا فقدان شيئاً عزيزاً الصورة الشعرية حقيقية .

وظيفة الغزال رمزية تدل على البراءة.

أتعلم ان الغزالة لا تأكل العشب ان مسه دمنا ([38])

استعمل الشاعر اسلوب الاستفهام مع الحوار في بداية البيت لوصف العدو حيث انه يعيش على دماء الابرياء اما الغزال التي تدل على البراءة في كل كيانها لا تأكل العشب الملطخ بالدماء وهي رمزاً للإنسان البسيط الذي لا يستطيع اكل الطعام اي الحياة وهو ملطخ بالدماء تحت الظلم والقتل ولكن العدو يعيش ويقتات على الدماء

الصورة الشعرية حقيقية حيث قابل فيها بين وحشية العدو وتسامح الحيوان ليضع في هذه المقابلة صورة مقابل صورة تبين التناقض الظاهر بينهما

وخذ الغزالة من فخاخ غناء الرعوي ([39])

ذهب الشاعر الى منحى آخر في استعمال لفظة الغزالة فقد دل على الجمال اي خذ الجمال من طبقات اصواتنا وعذوبه الحاننا والفخاخ المتولدة من غنائنا وفي البيت دلالة على التسليم للقدر اما الصورة الشعرية فهي حقيقية ووظيفة الغزالة رمزية تدل على الجمال.

2- الخيل : هو لفظة يبيّن فيها جنس الحيوان الذي تجتمع فيه وظائف ثلاث هي "الحرب ،الركوب ،الزينة " ([40])والعرب يعتنون بالخيل فهي حبيبة الى نفوسهم يكرمونها ويؤثرونها بالطعام والشراب فهي زينة الفارس يمتطيها في النزهة والصيد وبها يدافع عن نفسه وسلاحه عند الكر والفر وهذه الصفات معروفة لدى العرب ويستعملها الشاعر في مجموعته الشعرية كثيرا.

لنا منذُ عادَ التتار على خيلنا
والتتارُ الجُدد([41])

استعمل الشاعر لفظة الخيل لتدل على ان المحتل اغتصب خيولنا وعاد ليضربنا من على ظهورها الصورة الشعرية حقيقية ووظيفة الخيل رمزية تدل على قوةٍ وبئس ما نستخدمه لنحارب .

ستنقصكم ايها البيض ذكرى تروض خيل الجنون ([42])

يبدا الشاعر البيت بالنداء في ايها ليخاطب المحتل ويقول له ستصبح يوما قوتكم ضربا من خيال كالجنون الصورة الشعرية في ايها البيض كناية عن المحتل وفي خيل الجنون مجازا لغويا وظيفة الخير رمزية تدل على قوة لا يدركها العقل البشري .

3- الحمام : هو نوع من انواع الطيور يمتاز بجمال لونه و صوته الرخيم وروحه العذبة يُذكّر بأوتار العشق حينا وفي التعبير عن واقعه النفسي المتأزم حينا اخر فيكون صوت الحمام "مرة سجعا ومرة غناء واخرى نواحا وتضرب به المثل في الاطراب والشَّجي وبه جاء الشعر" ([43]) وقد أُستُعمل الحمام بوصفه رمزا للحنين والهديل الصادر عنه فكان من اروع ما ذكره ابو فراس الحمداني فلا بد من ذكر هذا البيت وهو

اقولُ وقد ناحَـــــت بقُربي حمامَةٌ أيا جارتَا هل تشعُرين بِحالي(44)

فقد عبر الشاعر محمود درويش عن واقعه الحزين بالحمام ويذكره في عدة مواضع من شعره

يرفو الحمام
فوق ساحات غرناطة (45)

قصد الشاعر ان وقوف الحمام على ساحات غرناطة يكسوها ثوبا يتلون بالوانٍ كثرتها وذلك الثوب يظهر في النهار فيعطي شعور بالسلام و الهدوء النفسي، الصورة الشعرية حقيقية اما وظيفة الحمام فتدل على الحياة والسلام .

في الممرّ الى ساحة البرتقالة حيث يطير الحمام (46)

رسم الشاعر صورة جمالية ينسى فيها يومه وامسه عندما يطير الحمام في هذا المكان والساحة الجميلة التي يقصد بها غرناطة التي احتلها العدو وأضاع عروبتها مثل فلسطين المحتلة الصورة الشعرية حقيقية و وظيفة الحمام جمالية

الفصل الثاني : الطبيعة الصامتة في مجموعة أحد عشر َكوكباً

الطبيعة الصامتة لغة :

عرفها الزمخشري على انها " ما ليس له صوت ولا ناطق... اي ما لم يسمع له صوت" (47) وعرفها ابن منظور هي" فمتى يصمت صمتا وصمتا وصموتا وصُماتاً وأصمتَ : أطال السكوت ... والصامتُ : الذهب والفضة ، والناطقُ : الحيوان ، كالإبل والغنم ..." (48)

الطبيعة الصامتة اصطلاحا :

يمكن تعريف الطبيعة الصامتة بانها" الصمت وهو السكوت ... واكثر ما يطلع الصامت على الجماد " (49) وقيل عنها انها " لون جديد في الادب العربي القديم يجمع بين الغنائية والموضوعية ... وتمضي الى مناجاة النفس الانسانية ببوح مؤثر وتقنية عفوية لا يتبدى فيها اثر التكلف " (50) ؛ ولهذا يستطيع الشاعر التحكم بمظاهر الطبيعة لأنه "الذي يحدد هوية الأمكنة الاخرى فيجعل من الصحراء بستانا ويجعل من النهر الصغير نهرا كبيرا ومن القرية الواحدة قرى فمدينة " (51) ، وتضم الطبيعة الصامتة اماكن متعددة منها: الجبال، الكثبان، الوديان ،والبحار ،والصحراء (52) بهذا يمكن ان نفرق بين الطبيعة الحية والصامتة ، فالحية هي التي فيها روح متحركة ومتولدة تنمو وتتغذى وغيرها...

اما الصامتة ما ليس فيها روح ولا يحصل لها ما يحصل للأحياء ولكنها مظهر من مظاهر الطبيعة ايضا فمن هذه المظاهر:

1- الأرض : وهي تلك الوحدة والنظام الذي نعيش فيها وقد سخرها الله الينا وكوَّنها في مرحلتين الاولى قبل تشكيل السماء والثانية عندما تشكلت لتَكوّن على النحو المناسب لتوازنها في حركتها بظهور الجبال فوقها (53) وقد استعملها الشاعر في عدة مواضع منها :

اتذكر انني مررت على الارض ، لا ارض في هذه الارض
منذ تكسَّرَ حولي الزمان شظايا (54)

الشاعر يتذكر صورة الدمار الذي حل على ارضه نتيجة الحروب التي خربت كل ما كان عليها من بشر وطبيعة وهذا يعكس الحالة النفسية المتألمة للشاعر وهذه تبيّن الحالة الاجتماعية التي كان يعيش بها اما الصورة الشعرية فهي مجازية

وظيفة الارض فهي رمزية دالة على الانتماء والتجذر والالتصاق بالوجود الانساني ولا اشارة الى الخضرة فيها بل الارض بكل موجوداتها التي تُشكل سبب وجود الانسان فهي وطنه وارضه التي عاش بها وتجذر ونما

بين أحضانها وحين يفتقر الى ما يربطه حسينا ومعنويا بهذه الارض تتحول الى وجود اخر غريب عنه لا يعرفه ولا يشابه الارض التي احتضنته وانتمى اليها .

خذ ذهب الارض والشمس، واترك لنا ارض اسمائنا ([55])

يستهل الشاعر البيت بالحوار مع العدو، اي خُذ ما تريد من خيرات هذه الارض زراعتها نفطها ذهبها معدنها كنزها ولكن اترك لنا الارض التي جُبلت بأسمائنا واسماء ابائنا وارجع من حيث اتيت يا غريب .

الصورة الشعرية مجازية ، اما وظيفة الارض فهي رمزية تدل على الخيرات في الموضع الاول وتدل على ارض الوطن في الموضع الثاني .

بعد عرض الكثير من النماذج للاستعمال اللغوي المختلف للأرض التي وظفها الشاعر توظيفا دلاليا مختلفا تبعا لمكونات السياق الذي يحتوي هذه المفردة ألحق فيها ذكر مفردة السماء التي كان لها نسقا رمزيا مائزاً يتحقق من اندماج الأرض والسماء واتحادهما ضد العدو المحتل الذي تطرده كل مكونات هذا البلد العربي الأصيل .

2 ـ السماء : لفظ يطلق بوجه عام من على النظام الكوني الذي فوقنا، اي هي تلك الاجرام الضخمة التي نراها في الاعلى ([56]) او هي الغلاف الغازي للأرض بما فيه من مظاهر متعددة ونُطق حماية للحياة الارضية ([57]) وفيها كواكب الهمت الشعراء بصورها واشكالها المتغيرة واخذوا يجهدون افكارهم في تصوير ما يشاهدوه ([58]) وقد جاءت كثيرا في شعر محمود درويش منها:

لا سقف بين السماء وزرقة أبوابنا ([59])

ان زرقة الابواب دلالة على منظرها وجمالها ولا يوجد فاصل بين ابوابنا التي كُتبت عليها الكرامة والعزة وبين السماء التي تدل على رفعة مقامنا لأننا اول من كتب الحضارة

الصورة الشعرية استعارة حيث استعار صفة السقف الخاصة بالبيت للسماء وهناك تلازم تام بين الابواب والسماء بل انه جعل للأبواب لونا ازرقا وكأنها مفتوحة كالسماء فالأبواب سماء والسماء ابواب اما وظيفة السماء هنا رمزية تدل على رفعة المقام.

ليدفن فيها السماء...

يقول الغريب كلاما غريبا ([60])

يتحدث الشاعر عن دفن السماء وهيهات أن تُدفن من قِبل العدو ويرسم صورة السماء ويعطيها للقيم الرفيعة هي التي يريد الغرباء دفنها وازالة آثارها ، أما الصور الشعرية هنا فهي استعارة حيث استعار صفة القيم والاخلاق للسماء وجعل العدو يحاول دفنها اي يعطي للسماء جسما ملموسا حيث يحاول العدو دفنها ووظيفة السماء هنا رمزية دالة على القيم والرفعة .

3- البحر : هو الماء الكثير الواسع الممتد وسميَّ بذلك لعمقه واتساعه وانبساطه وان البحر من خلق الله الذي لم تتدخل ارادة الانسان لإيجاده ([61]) وقد قال عنه الشاعر في هذه المجموعة الكثير من الأبيات :

لا تقطعوا شجر الاسم يا ايها القادمون

من البحر حربا ([62])

قد مزج الشاعر بين الطبيعة الحية والصامتة واستهل البيت بالنهي وبعده شجر الاسم وهو ترتيب لغوي يدل على التغيير بالمسميات وينادي الغزاة الذين جاؤوا من وراء البحر ويقول لا تحتالوا علينا بشتى الوسائل فتقولون انكم محررون ومرة انكم مساعدون على التحرير ومرة انكم منقذون ، وتضربون وتحرقون مزارعنا واستعمل النداء بي يا ايها القادمون من البحر للدلالة على الاستعمار لانهم جاءوا من البحر المتوسط

الصورة الشعرية مجازية في شجر الاسم وهو مجاز لغوي حيث نسب الاسم للشجر حيث الدلالة على تغيير المسميات ، وظيفة الشجر رمزية دالة على الزيف والنفاق ووظيفة البحر دالة على مكان محدد بعيد فكل ما وراء البحر كناية عن البعد .

حجرٌ يطير إلى أبي حجلا ، أتعلم يا أبي
ما حل بي؟ لا باب يغلقه عليَّ البحر(63)

يجسد الشاعر الحجر ويجعله كالطير الذي يوصل الرسائل وهو يطير حجلا أي "حَجِلاً وحَجْلانا مشى على رجل رافعا اخرى ويقال مر بي يحجلُ في مشيتة اذ تبختر..." (64) اي انه يطير ببطء ولا يجد الشاعر طريقا او وسيلة ليوصل اخباره الى ابيه غير هذا الحجر الذي يطير ببطء ليوصل الرسالة، وأيُّ رسالة كان يدافع بها الشعب الفلسطيني غير الحجر فكأنه رمزاً للثورة (و يا ابي لم يخلصني من تدمير المحتل الا باب عطف علي بها البحر ولكنه لا يُغلق) واستعمل لذلك اسلوب الاستفهام الذي خرج الى الشكوى والعتاب لما حل به وقد استعمل اسلوب النفي في لا باب اي حتى باب العطف التي اوي اليها لا يمكن غلقها لأنها باب من البحر.

الصورة الشعرية في البيت صورتان الاولى استعارة تجسيدية حيث استعار صفة الانسان المتعثر السائر في تبختر الى الحجر ليوصف السير البطيء .

اما الصورة الثانية فهي استعارة حيث استعار صفة البيت الذي فيه ابواب يمكن ان تُفتح وتغلق للبحر ووظيفة الحجر الرمزية تدل على الطائر الذي يطير بتبختر اما وظيفة البحر فهي رمزية ايضا ولكنها تدل على المُخلّص .

4- النهر :هو المجرى الواسع من الماء العذب او هو مسطح مائي ينساب على اليابسة في مجرى طويل ضمن ضفتين (65) وقد تطرّق الشاعر الى النهر وغيّر في دلالة هذه الكلمة كما في الابيات :

وهو النهر حيث نُحدِّق في النهرِ
يغرورق الوقت فينا ... (66)

يرمز النهر الى الحياة فعندما ننظر في هذا النهر فأننا ننظر الى الحياة حتى ننسى الوقت لان كل ما فيها جميل ويغرورق الوقت ان يبكي علينا من كثرة ظُلمنا . الصورة الشعرية مجازية في يغرورق الوقت وهو مجاز لغوي حيث جعل للوقت عينان يمكن ان تدمع اما وظيفة النهر فهي وظيفة رمزية دالة على الحياة الجميلة

وتعبرين النهر يا ريتا
واين النهر؟ قالت
قلت : فيك وفيّ نهر واحد (67)

استعمل في اول الابيات الحوار والخطاب الكائن بينه وبين حبيبته وبدأ البيت بالاستفهام الاستنكاري وهذا هو الذي يجعل روحا للحوار يحث الشاعر من احبها لو تتحدين سريان النهر ، والنهر دال على من يقف ضده ويمنع حبه لتتخطين الحواجز التي وضعها لك ثم يقول لها ان فيه وفيها نفس الاحساس وقد رمز لكلمة النهر الثانية برمز الاحساس

الصورة الشعرية مجازية تتضح في قوله فيك وفيَّ نهر واحد وهي مجاز لغوي وظيفة النهر وظيفة رمزية وقد وردت مرتين في البيت وكانت في الاولى داله على من يقف ضده اما في المرة الثانية يرمز النهر الى احاسيس الشاعر الصادقة .

الخاتمة

بعد القراءة الموضوعية المعتمدة على الاسس المنهجية والبحثية في نص محمود درويش توصلت الباحثة الى النتائج الاتية :

1. كانت حياة محمود درويش و ظروفه القاسية المتمثلة باحتلال بلده الاثر الاكبر في عظمة الانسان الشعرية لديه وكذلك توظيفه لثقافته وتجارب الحياة في شعرهِ

2. اتسمت الطبيعة الحيَّة في شعر درويش بأبعاد فنية أقترب فيها الشاعر من البناء الرمزي مبتعدا عن التوظيف الجمالي فحسب ؛ لقرب تلك الطبيعة من نفسه
3. اعتمد الشاعر على صور خاصة في توظيفه للطبيعة وجعلها الأكثر ظهوراً في نصه لقربها من الموروث الشعري العربي وكذلك البيئة الثقافية التي عاش فيها الشاعر واتضح ذلك لكثرة توظيفه لمفردات الأرض ، والوطن ، والسماء وغيرها
4. ابتسم التوظيف الفني للطبيعة الصامتة بمديات رمزية أوسع من الطبيعة الحية لأنه فيها تقابل مع بنيات محددة أضاف اليها رؤية رمزية اشتملت على الإيحاء والتكثيف
5. كان لصورة تكاتف الأرضِ مع السماء واتحادها لإخراج العدو من البلاد الوجود الأكبر في شعر الطبيعة الصامتة
6. اعتمد الشاعر على الوظيفة الرمزية والجمالية للصيغة ومزج بينهما في مواطن كثيرة للتدليل على قدرة الصيغة في التعبير عن الأفكار .

الهوامش :

[1] . شاعر المقاومة محمود درويش : د. صادق آئينة وند ، مجلة الحضارة الاسلامية ، ص 397 .
[2] . يُنظر / الثورة في شعر محمود درويش : ياسين فاعور ، ص 64 - 107 .
[3] . يُنظر / المصدر نفسه ، ص 74 .
[4] . يُنظر / شعر المقاومة الفلسطينية : حسني محمود ، ص 7 ،ج4 .
[5] . يُنظر / الأدب الفلسطيني الحديث : عبد الرحمن ياغي ، ص 99.
[6] . يُنظر / الشعر الفلسطيني ، المقاوم : طلعت سقيرق ، ص 74
[7] . يُنظر / الفضاء الميثولوجي المؤسس لجدارية محمود درويش : عباس رشيد الدده ، مجلة العلوم الانسانية ، ص 88 .
[8] . يُنظر / شاعر المقاومة محمود درويش ، مجلة آفاق الحضارة الاسلامية ، ص 401.
[9] . مقاييس اللغة : احمد بن فارس ، ج3 ، ص 438 . مادة طَبعَ .
[10] . أساس البلاغة : الزمخشري ، ص 383 . مادة طُّبْع .
[11] . لسان العرب : ابن منظور ، ج8 ، ص118. مادة طَبَعَ .
[12] . تفسير الكشاف : الزمخشري ، ج2 ، ص140.
[13] . التعريفات : الجرجاني ، ص140 .
[14] . شعر الطبيعة في الأدب العربي : د. سيد نوفل ، ص 258-259 .
[15] . ينظر / الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوفل القيسي ، ص 96.
[16] . لسان العرب / ج2 ، ص 292.
[17] . أساس البلاغة ، ص 150 . مادة حَيّيَّ .
[18] . التعريفات ، ص 134.
[19] . الكليات : أبو البقاء ، ج2 ،ص 265.
[20] . يُنظر / الطبيعة في الشعر الجاهلي ،ص96.
[21] . البيئة الأندلسية واثرها في الشعر : سعد شلبي ، ص 149.
[22] . قاموس القرآن الكريم : نخبة من العلماء والباحثين ، ج3 ، ص 76.
[23] . مجموعة احد عشر كوكبا : محمود درويش ، ص1 .
[24] . المصدر نفسه ، ص 24 .
[25] . المجاز اللغوي : " هو الكلمة المستعملة في غيرِ ما وضعت له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب مع قرينةٍ مانعة عن إرادته ، أي إرادة معناها في ذلك الاصطلاح " (التعريفات ، ص 146)
[26] . يُنظر / قاموس القرآن الكريم (معجم النبات) ، ص 105 -106 .
[27] . مجموعة احد عشر كوكباً ، ص 42.
[28] . الاستعارة : هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه ، مع طرح ذكر المشبه من البين " (التعريفات ، ص11).
[29] . مجموعة احد عشر كوكبا ،ص 70.
[30] . المصدر نفسه ، ص46 .
[31] . ينظر / بحث الطبيعة الأندلسية و أثرها في استثمار اللون الشعري : لؤي صيهود ، مجلة كلية التربية ، ص 238.
[32] . مجموعة احد عشر كوكبا ،ص 33 .
[33] . المصدر نفسه ،ص 56.
[34] . المصدر نفسه، ص54.
[35] . مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي : ابتسام مرهون الصفار ، ص 48.
[36] . يُنظر / الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص46 .
[37] . مجموعة أحد عشر كوكبا ، ص 3 .
[38] . المصدر نفسه ،ص 33 .
[39] . المصدر نفسه ، ص41.
[40] . يُنظر / قاموس القرآن الكريم ،ج2، ص257 .
[41] . مجموعة احد عشر كوكبا ،ص82.

[42] . المصدر نفسه ، ص 28 .
[43] . ثمار القلوب في المضاف و المنسوب : أبو منصور إسماعيل المنصوري ص459، ينظر/ الطبيعة في شعر لبيد : د. جليلة صالح صاحب ، ص64.
[44] . ديوان أبو فراس ، ص44.
[45] . مجموعة احد عشر كوكبا ،ص19.
[46] . المصدر نفسه ، ص19.
[47] . أساس البلاغة ، ص361 . مادة صَّمات
[48] . لسان العرب ،ج8، ص278 . مادة صَمَتَ
[49] . القاموس الجامع : عيسى الغديري ، ص310 .
[50] . الشعر الاندلسي تأويلا و تأصيلا :د . فهد عكام ، ص 140 .
[51] . دلالة المكان في قصص الأطفال : ياسين النصير ، ص63.
[52] . يُنظر / الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوري القيسي ، ص23- 52 .
[53] . يُنظر / قاموس القرآن الكريم ،ح1،ص105 .
[54] . مجموعة أحد عشر كوكبا ، ص 70
[55] . المصدر نفسه ، ص 27 .
[56] . يُنظر / قاموس القرآن الكريم ، ج1،ص104 .
[57] . ينظر/ قضية الأعجاز العلمي للقرآن الكريم : النجار زغلول ، ص 168 .
[58] . يُنظر/ كنز الحفاظ : أبو يوسف السكيت ، ص364.
[59] . مجموعة احد عشر كوكبا ، ص 32.
[60] . المصدر نفسه ،ص 30 .
[61] . يُنظر/ قاموس القرآن الكريم ، ج2، ص133.
[62] . مجموعة احد عشر كوكبا، ص27 .
[63] . المصدر نفسه ،ص39 .
[64] . المعجم الوسيط ، ص 24 .
[65] . ينظر / قاموس القرآن الكريم ،ج 2 ، ص 448 .
[66] . مجموعة احد عشر كوكبا ، ص 33 .
[67] . المصدر نفسه ، ص 65 .

المصادر والمراجع :

1. الأدب الفلسطيني الحديث : عبد الرحمن ياغي، د.تح ، ط1 ، الهيئة العامة للتأليف والنشر دار الكتب العربي ـ القاهرة ،1969م .
2. أساس البلاغة : جار الله الزمخشري، د.تح ، ط1 ، دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ، 1979م .
3. البيئة الأندلسية واثرها في الشعر : سعد شلبي ، د.تح ـ دار النهضة ـ القاهرة ، 1978م .
4. التعريفات : الجرجاني ، د.تح ، ط1 ، دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ، 1983م .
5. تفسير الكشاف : الزمخشري، د.تح ، ط2 ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، 2004 م .
6. ثمار القلوب في المضاف و المنسوب : أبو منصور إسماعيل المنصوري ، تح محمد إبراهيم ، د.ط ، مطبعة المدني ـ القاهرة ، 1965 م .
7. الثورة في شعر محمود درويش : ياسين فاعور، د.ت ، ط1 ، دار المعارف للطباعة والنشر ـ تونس ، 1989م .
8. دلالة المكان في قصص الأطفال : ياسين النصير، د. تح ، دار الثقافة للأطفال ـ بغداد ،1985م .
9. ديوان أبو فراس الحمداني : تح نخل قلفاط ، ط1 ،مكتبة الشرق ـ بيروت ، 1910 م .
10. شاعر المقاومة محمود درويش : د. صادق آئينة وند ، مجلة الحضارة الإسلامية ـ طهران العدد الرابع عشر ، 1425 هـ .
11. الشعر الاندلسي تأويلا و تأصيلا :د . فهد عكام، د.تح ، ط1 ، دار الينابيع ـ دمشق ، 1995 م .
12. شعر الطبيعة في الأدب العربي : د. سيد نوفل ، د.تح ، ط1 ، مطبعة مصر ـ القاهرة ، د.ت .
13. الشعر الفلسطيني المقاوم : طلعت سقيرق ، د.تح ، ط1 ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، 1993م .
14. شعر المقاومة الفلسطينية : حسني محمود، د.تح ، د.م 1967م .
15. الطبيعة الأندلسية و أثرها في استثمار اللون الشعري : لؤي صيهود ، مجلة كلية التربية الرياضية ، جامعة ديالى ، العدد الثالث والسبعون ،2012م .
16. الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوفل القيسي، د.تح ، ط1، عالم الكتب ـ بيروت ، 1984م.
17. الطبيعة في شعر لبيد : د. جليلة صالح صاحب ، كلية التربية للبنات ،1999م .
18. الفضاء الميثولوجي المؤسس لجدارية محمود درويش : عباس رشيد الدده ، مجلة العلوم الإنسانية ، كلية التربية ، صفي الدين الحلي ـ بابل ،2005م .
19. القاموس الجامع : عيسى الغديري ، د.تح ، ط2 ، دار المحجَّة البيضار ـ بيروت ، 2005.
20. قاموس القرآن الكريم : نخبة من العلماء والباحثين ، د.تح ، ط1 ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ الكويت ، 1992م .
21. قضية الأعجاز العلمي للقرآن الكريم : النجار زغلول ، د.تح ، ط2 ، شركة النهضة ـ مصر ، 2005م.
22. الكليات : أبو البقاء، تح عدنان درويش ، ط2 ، د.م ، 1992م .
23. كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ : أبو يوسف السكيت ، تهذيب يحيى بن علي ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، 1895م .
24. لسان العرب : ابن منظور، تح علي شيري ، ط1 ، دار احياء التراث العربي ـ بيروت ، 1988م .
25. مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي : ابتسام مرهون الصفار، د.تح ، د.ط ، مطبعة الأرشاد ـ بغداد ، 1968م .
26. مجموعة احد عشر كوكبا : محمود درويش ،د.تح ، ط1 ، د.ت.
27. المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى ، احمد الزيات ، محمد النجار ، تح مجمع اللغة العربية ، ط1 ، د.م ، د.ت .
28. مقاييس اللغة : احمد بن فارس ، تح عبد السلام هارون ، ط1 ، الدار الإسلامية ـ لبنان ، 1990م .